الدولة الإسلامية بين الأمس واليوم

بقلم الأستاذ:
فوزى عبد العظيم رسلان قر
معيد بقسم الدعوة

لا عجب إن رأيت راهبا يترك صومعته، ويتوجه بعلمه إلى حقل الجامعة؛ ليشارك فى مناقشة رسالة جامعية - لها صلة بدينه - لكن الأعجب حينما تراه يتقدم بتلخيص دقيق وشامل لكل ما احتوته هذه الرسالة الجامعية، ثم يأتى دور المناقشة فتراه يجول ويصول، ولا تجد من يقاطعه فى مناقشته، وتمر الساعات. ثم ترجأ المناقشة ليوم آخر ولا حرج عليه فى ذلك.

وقد يسأل سائل ويقول: ما المقصود بهذا الكلام . . . ؟ نقول له معه تعرف طبيعة أعداء دينك وماذا يفعلون، وقد تحول المسلمون قلبا وقالبا من الإسلام، فتهدوا فى الدنيا وتركوها لأعدائهم، فملكوها وسادوا عليهم، ولقد كان جديراً بالمسلمين أن ينتهزوا فرصة وجودهم على الأرض ليعرفوا عظمة رب العالمين؛ بدراسة خواص المادة والقوانين السارية بين شتى العناصر.

فالله لا يعرف بدراسة ذاته فهو مستحيل، وإنما يعرف بدراسة ملكوته الضخم واستجلاء الآيات الدالة عليه هنا وهناك، لا بأسلوب شعرى هائم، ولكن بأسلوب علمى صارم.

كثير من المسلمين يقرأون قول النبى ﷺ «بنى الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا»(١) فيفهمون

(١) مسلم بشرح النووى جـ ١ ص ١٥١ رواه ابن عمر.

أن الإسلام دين عبادة فقط كغيره من الأديان ، وأنه لا يقوم إلا على هذه الأركان الخمس ، ولا يطلب فيه منهم إلا أدائها والتصديق بها . ثم يبنون على هذا الفهم الخاطىء أن نجاحهم فى دنياهم وأخراهم لا يكون إلا بأداء هذه العبادات ، وأن عدم نجاحهم فيها لا يكون إلا بعدم أدائها ؛ لأنه يكون بها رضا الله تعالى ورضاه هو سبب النجاح فى الدنيا والآخرة ، ولا حاجة معه إلى اتخاذ أسباب أخرى لهذا النجاح ، لأن كل شىء بيد الله ، فإذا أراد نجاح عبد فى دنياه أو أخراه حصل بمجرد رضاه ، ولم يحتج إلى أسباب أخرى تؤدى إليه .

بهذا الفهم الخاطىء تغالى المسلمون فى أمر هذه العبادات ، حتى ابتدعوا فى الإسلام رهبانية ، كما ابتدعها أهل الأديان قبلهم ، وبنوا فيه ما يشبه الأديرة والصوامع لينقطع فيها العبادة من المسلمين من يريد الانقطاع إليها ، فيقضون حياتهم فى الذكر بتكرير النطق بالشهادتين ، وفى قيام الليل ، وصوم النهار . حتى إذا جاء موسم الحج هرعوا إليه كل سنة ، وكأن هذا الدين عندهم ، فلا شىء من عمل الدنيا ، ولا شىء فيه مما ينهض بالمسلمين فى دنياهم من علم أو صناعة أو زراعة ... وما إلى هذا مما يحفظ عليهم دنياهم ، ولا يجعلهم فيها أقل نجاحاً من غيرهم ، وحتى لا يطمع فيهم طامع ولا يستبيح حماهم عدو . فيملك عليهم أمرهم ويضيع عليهم دينهم ودنياهم .

ولو صح هذا الفهم الخاطىء لم يكن هناك فى الإسلام شىء من التجديد ، لأن أمور العبادة فى الإسلام لا تقبل التغيير ، فالصلاة هى الصلاة لا تغير فيها ، وكذلك الزكاة ، والصوم ، والحج ، والنطق بالشهادتين ، فلا يمكن أن نزيد فى الصلاة ولا ننقص فيها ، أو ندخل فيها شيئا من التغيير ، ولا يمكن أن نقدم أو نؤخر فى الصلاة ، أو الصوم ، أو الزكاة .. إلخ .

ولكن هذا الفهم غير صحيح ، فالإسلام ليس دين عبادة فقط ، وإنما نهضة دينية ومدنية معاً ، قصد بها النهوض بالعرب الذين اختير الرسول

منهم أولا ، لينهضوا بسائر البشر ثانياً وقد كان العرب فى ذلك الوقت أمة أمية أقرب إلى الصلاح من غيرها ، لأن الأمم التى تفسد على جهل أقرب إلى الصلاح من الأمم التى تفسد على علم، وقد صرح بهذا المقصد من الإسلام فى قوله تعالى : « هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين »(١) فهو فى هذا يؤثر الأميين على لفظ العرب ليدل على أن المقصد من هذا الدين محو أميتهم والنهوض بهم فى الدين والعلم ، وهذه هى وظيفة الإسلام الكبرى، وغايته العظمى فى الحياة الدنيا ، وبها كان خاتمة الأديان ، وكان الرسول الذى بعث به خاتم الرسل ، لأنه كفل بهذه الغاية مصلحة الدنيا والآخرة ، ولم ترجح فيه كفة مصلحة منها على الأخرى ، كما كان ذلك فى الشرائع السابقة ، فصلح لكل زمان ومكان ، ولائم كل الظروف والأحوال ، وناسب كل الشعوب والأجناس من العرب وغيرهم من الشعوب السامية ، إلى الفرس وغيرهم من الشعوب الآرية . إلى البربر وغيرهم من الشعوب الحامية ، لأنه نظر إليهم جميعاً على سواء ، وألقى إليهم بشرائع عامة وعادلة لا إيثار فيها لشعب على شعب ، ولا تمييز فيها لجنس على جنس « كلكم لآدم وآدم من تراب ، لا فضل لعربى على عجمى ، ولا لعجمى على عربى إلا بالتقوى والعمل الصالح »(٢) .

والإسلام من جهة هذه الغاية يتسع للتجديد فى كل زمان ، لأنه إذا كانت غايته النهوض العام بالانسانية ، فوسائل هذا النهوض تسير فى طريق الارتقاء ، ولا تقف عند حد محدود لا تتعداه ، وأمرها فى هذا يخالف أمر العبادات، لأنها تعتمد على الارتقاء ، على العلم القائم على الملاحظة، والتجربة

---

(١) الجمعة ٢

(٢) الترغيب والترهيب المنذرى ج ٢ ص ٣٣ ،

والاستنباط ، والانسان لا يمكن أن يبلغ الكمال فى العلم ، وإن امتد به الزمان ووصل إلى آخر هذه الحياة قال تعالى «وما أوتيتم من العلم إلا قليلا»(١) ليفتح باب الارتقاء والتجديد فى العلم على مصراعيه ، ولا يجعل للغرور بالعلم سبيلا إلى نفوسنا لأنه هو الذى يقف دون الارتقاء والتجديد فى العلم ، ويؤدى إلى الجمود المذموم فيه ، وقديما قالوا : « الجمود يؤدى إلى الجحود .

قصور بلا حجة ولا معذرة :

لا حجة لمن ترك الدعوة الاسلامية ، فالبراهين قائمة وليس لهم أن يقولوا « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها »(٢) لأن الطاقة توجدها الهمة والعزيمة ، والوسع يتبع قوة الايمان فمن كان قوى الايمان بالحق ، كان ذا طاقة تتسع لما يوجبه الايمان .

وإن العيب يكون لاحقا لمن كان نادراً ، ولكنه يصم نفسه بالعجز ، فإن ادعاء العجز يشبه بالعجز ، ولا عذر بالضعف الحربى ، لأن الضعف الحربى وليد الضعف النفسى ، وإذا كان الأمراء قد تنازعوا فإن ذلك لا ينزع الايمان من القلوب : [واعلم بأن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لا ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك ، واعلم بأن الأمة لو اجتمعت على أن يضروك بشىء لم يضروك الا بشىء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف »(٣) .

وقوله ﷺ [احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز ، وإن

---

(١) الاسراء ٨٥

(٢) البقرة ٢٨٦

(٣) الترمذى جـ ٤ ص ٦٦٧ حديث حسن صحيح رواه ابن عباس .

أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كذا وكذا ، ولكن قل قدر الله وما شاء فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان](١) .

إنه يجب علينا أن نعرف أن الدعوة إلى الاسلام ، وبيان حقيقته ، وتطبيق أحكامه في الواقع الاجتماعي فرض كسائر الفروض ، وإذا كان الناس لا يستجيبون في نفوسهم ، كما يستجيبون للصلاة ، فذلك لنقص في إيمان المؤمن بحق غيره عليه ، وإن عدم الاحساس بذلك فوق أنه نقص في الايمان دليل على أن المصلي لا يقوم بحق الصلاة ، لأن إقامة الصلاة على وجهها يقتضي ذكر الله تعالى ومن ذكر الله تعالى ، عليه أن يعلن أمر الله ونهيه ، وتطبيق أحكام دينه وأن يدعو الناس إلى توحيده ، وعبادته لا يشرك به شيئا .

إنه قد ثبت من السياق التاريخي سيطرة الباطل ، فالحكام متنازعون لا يقومون بحق الحكم ، ولا يحكمون بالعدل بين الناس ، والامة قد شغرت من الأخلاق بسبب وسائل الاعلام ، وتوالى الهجوم علينا ، فالباطل قد استحكم ، والظلم قد تحكم ، من هنا وجب العمل على الاصلاح وبمقدار قوة الشر تكون العزيمة على الخير ، فلا يشغل الشر عن الخير ، وإلا عم الفساد وضل العباد إلى يوم القيامة ، ونقول بأنه لو كان استحكام الشر داعيا إلى السكون ، ما أقام رسول من رسل الله دعوته إلى الحق ، ولرجع محمد بن عبد الله ﷺ عن دعوته بمجرد أن صده المشركون بالانكار ، وبادروه بالعداوة والايذاء ، وما كان ليفعل وقد قال له ربه « فاصدع بما تؤمر به وأعرض عن المشركين »(٢) ففي وسط الباطل يجب النطق

---

(١) مسلم جـ ٢ ص ٤٦١ . ابن ماجه جـ ٢ ص ٣٩٥ رواه أبو هريرة .

(٢) الحجر ٩٤

بالحق والدعوة إليه ، وبمقدار قوة الباطل تكون قوة الدعوة ، والداعي إلى الحق .

كما أن اليأس من سماع الحق ، أو الاستجابة لا يمنع الدعوة إليه ، بل يجب أن يعمل العالم ولا ييأس ، فإن اليأس سمة الكافرين بالحقائق غير المؤمنين بها ، إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون »(١) .

الحال الآن :

انقلبت الأمور والموازين ، وحالت الأحوال ، فصار ما يظهر من المسلمين يخالف مايدعو إليه دينهم ، وصار يأسهم بينهم شديداً . وأحكام الله القائمة على العدل قد اختفت ، فلم تجد مكانا بينهم ، ففساد الحكام . وطغيان المادة ، ومن القوانين المغرضة البعيدة عن الحق ، جعلت حياة الأمة الإسلامية مضطربة ، فضعفوا بعد أن كانوا أقوياء يطلب منهم العدل فى أنفسهم وغيرهم ، وصاروا ضعفاء مستنجدين بغيرهم ، وبذلك ضعف المسلمون عن الدعوة إلى الله . وبيان حقيقة الاسلام وتبليغه الذى حملوه عن النبى — ﷺ — فهربوا منها وهانت عليهم وصاروا فى حكم الريشة فى الهواء ، ولكن كان لكل هذا أسبابه أبينها فيما يلى حتى يفيق المسلمون وينتهوا إلى معالمهم ، يقول الله تعالى حاكيا حاله مع الأمم السابقة بعد أن أخذهم بسبب ظلمهم ، ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد ، وماظلمناهم ولكن ظلموا : أنفسهم فما أغنت عنهم آلهتهم التى يدعون من دون الله من شىء لما جاء أمر ربك ومازادهم غير تتبيب ، وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد »(٢) .

---

(١) يوسف ٨٧

(٢) هود ١٠٠ — ١٠٢

أولا : تمسك ملوك المسلمين وأمرائهم فى العصر الحديث بحكمهم الاستبدادى حتى إن من فكر منهم فى الإصلاح ، لم يتجاوز به الإصلاح العسكرى، ولم يفكر فى إصلاح طريقة الحكم ، وقد كان الحكم الاستبدادى أس الفساد فى المسلمين ، فلا يمكن أن ينجح إصلاح مع بقائه الاستبداد ، لأن الإصلاح يقدم مع بقائه على أساس فاسد ، ولا يمكن أن يصلح البناء مع فساد الفساد ، فالحكم الاستبدادى يباعد بين الراعى والرعية ، فلا يشعر الحاكم فى نفسه يعطف عليها ، ولا يقوم حكمه على الإخلاص لها ، وبهذا لا يشعر بحقها فى النهوض ، لأنها إذا نهضت تشعر بما لها عليه من حقوق وتحاول أن تشاركه فى حكمها ، وهذا يأباه ما طبع عليه من الاستبداد ، وماجبل عليه من حبه لمصلحته وحده، وقد بادلت الرعية حكامها المستبدين تنكراً بتنكر فلم تخلص لحكمهم ، ولم تثق بأفعالهم ، وكان لهذا أثره فى إخفاق الإصلاح الذى فكر فيه بعض الملوك والأمراء ، وفى إخفاق الإصلاح الذى فكر فيه بعض الرعية .

ثانياً : أن الذين قاموا بالإصلاح فى تلك القرون لم يأتوا به كاملا ، بل أتوا ببعضه وتركوا بعضه ، فكان لما تركوه أثر فى عدم نجاح ما أتوا به ، لأن الشخص إذا أصيب بأمراض لم ينفعه إلا أن يداوى منها كلها ، فإذا شفى مرض منها لم يصح الجسم بشفائه وحده .وقد كان ملوك المسلمين وأمراؤهم ، أول من تنبه من تلك القرون إلى حاجتهم إلى الإصلاح ، ولكنهم لم يدركوا إلا أنه إصلاح عسكرى ، لأنهم شاهدوا دول العالم الحديث تغلبهم بجيوشها الحديثة فلم يهمهم إلا إصلاح جيوشهم ، ولم يعلموا بأن هذا العالم لم يصل إلى تنظيم جيوشه إلا بعد أن تمت نهضته العلمية ، والدينية ، والإجتماعية ، والسياسية ، فكان إصلاح جيشه كالنتيجة لهذه النهضة .

ثالثاً : أن جمهور علماء الدين مضوا على جمودهم فى تلك القرون ، فلم

ينتبه منهم إلى الإصلاح إلا نفر يعد على أصابع اليد الواحدة، وبقى جمهور العامة وراء هؤلاء العلماء الجامدين . ولم يتبع المصلحين منهم عدد يمكنه أن ينهض بالإصلاح ، ويكون له قوة تضاهى قوة أصحاب الجمهور ، أو تكون أشد من قوتهم ، فتقف وراء الإصلاح تحميه وتؤيده حتى يظهر أثره بين المسلمين ويدرك فضله مالا تدركه من الجامدين .

رابعاً : ان ملوك المسلمين لم يؤيدوا الحركة الإصلاحية فى بلادهم ، بل نظروا إليها على أنها ثورة من القائمين بها عليهم ، وأخذوا يحاربونها بكل ما فى وسعهم ، فلقى المصلحون منهم مالقوا من تعذيب وقتل وسجن ، وآثر بعضهم أن يحتمى بالدول الأجنبية على أن يستجيب لحركة الإصلاح ، فاستعدى بالظالمين فى بلاده على أهلها ، ومكن لهم من نفسه قبل أن يمكن لهم من رعيته .

خامساً : أن دول أوربا كانت تناوىء كل حركة إصلاحية بين المسلمين ، فإذا رأت أمة إسلامية أخذت فى الاصلاح شنت عليها حربا تشغلها عنه ، أو سلطت جواسيسها يبثون بالفساد بين طوائفها حتى تقوم فيها فتن داخلية تعترض أعمال الاصلاح ، ولا تمكن القائمين به من المضى فيه .

وهذه هى أهم الأسباب التى كان لها أثرها فى عدم وصولنا إلى التجديد الحديث فى هذه القرون ، فإذا أردنا أن نسير بعد هذا فى التجديد عرفنا ماعاق منها عن نجاحه ، واتقينا فى المستقبل أخطاء الماضى ، لنسلك فى الاصلاح وسائله الصحيحة ، النابعة من كتاب الله عز وجل وسنة نبيه ﷺ ، ولا يمكن هذا إلا إذا علم ملوكنا وأمراؤنا وأولياء الأمر فينا أنه لا بقاء لنا ولهم إلا بالتجديد والاصلاح ، وإلا إذا علم الجامدون منا أن المنادين بالتجديد مخلصون للدين مثلهم ، ولا يريدون إلا النهوض به بين الأمم فإذا علم هؤلاء وأولئك ذلك خلصت النيات ، وأمكن الاتفاق على

الوسائل التى تؤدى بنا إلى ما لم نصل إليه ، فهل هناك من مستجيب ، وأعتصموا بحبل الله جميعاً ولاتفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون »(١) .

---

(١) آل عمران ١٠٣